الانتقـاد

والدروس التاريخية في سورية

كتب حضرة الأب هنري لامنس في الجزء الحادي عشر من السنة العشرين لمجلة المشرق مقالاً مطولاً تحت هذا العنوان رد فيه على ردنا عليه في تاريخه المختصر عن سورية مزج فيه ما آخذناه عليه من الاغلاط والمغالطات في تاريخه متوهماً اننا ارتكبنا مثله في مقالات (غابر الاندلس وحاضرها). وانا لنشكره لاعترافه ضمناً باكثر ماوقع له من الشطط والاستقراء الناقص في كتابه الاخير عن الشام وأن لم يصرح بذلك .

وقد تشبث باشياء وتقوّل علينا اموراً إذا كان فيها مايقال في نظره فاللوم يعود على من كتبوها من مؤرخي الافرنج في الاكثر وهم قد استندوا إلى نصوص لاتقبل الانكار . وغريب منه كيف يسلب العرب مزاياهم على ماتقتضيه تعصبات الشعوبية وينال من مؤلفي الغرب الذين انصفوا العرب ويزيف اقوالهم ويتهمهم بامانتهم وعلمهم . وليس الثقة في نظره الا من وثّقه . وهذا ضرب غريب من المماحكة في الحقائق .

فقد قلّل بكتابته من شأن الطبري والبلاذري وابن سعد والاصفهاني وابن الاثير وابن خلدون وابي الفدا من ثقات مؤرخينا ووثق الواقدي ومادسه عليه القصاص والوضاعون ! وطعن بسيديليو وميشو وغيرهما ممن كتبوا على الاسلام والمدنية العربية وقال انه لايركن إلى ماقاله العرب الا إذا قورن بكتابات المؤرخين المعاصرين من اللاتين واليونان والأرمن وقال في مكان آخر « اليونان والسريان والافرنج » وهـــذا أيضاً من المغالطة التي نربأ بصاحبنا عن اتيانها .

فان هؤلاء الأعاجم ما كانوا يعرفون عن العرب إلا بقدر مانعرف نحن اليـــوم عن القطب الشمالي وسكان المريخ فما هذا المرجع البعيد الذي يحيلنا عليه وهو يحتاج على رأيه إلى دراسه خاصة وعلم واسع ! من هؤلاء الائمة الذين يقتدى بهـــم وفي كل صفحة من كلام المتعصبين نقرأ روح الغرض ؟ فكيف نأمنهم على تاريخنا ومتى كان الغريب أعرف بالدار من صاحبها ؟ واما إذا كان حضرته يريـــد ان يلقي الشك في

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كل ماقاله العرب اللهم إلا ما كان له مساس بالقضايا التي يهمه تأييدها على أي صورة كانت فهذا لايوافقه عليه أقل الناس ذوقاً في تاريخ الامم واحرى بمثل هذا التاريخ الذي يليه ان يسمّى كتاباً في بث دعوة دينية أو مذهب خاص .

ومن المغالطات أيضاً اصرار الاب لامنس على النيل من صلاح الدين ووصفه له بالطمع بزعمه فان صلاح الدين لم يكن خادماً عند نور الدين بل كان أكبر قواده ، وهو فاتح مصر ومبدد شمل الفاطميين بل وفاتح أكثر الشام والجزيرة وجامع شمل المسلمين لتكون كلتهم واحدة لعلمه وعلم جميع من لهم مسكة من العقل في عصره انه إذا وسّد الملك الى طفل تمزقت كلمة الجماعة لامحالة على اننا رأينا صلاح الدين قد احسن الى أولاد نور الدين واعطاهم قلعة جعبرالتي طلبوهاواغضى عن قلعة حلب ولو كتب للملك الصالح ان يعمر لجعله صلاح الدين في دولته كما كان هو في الدولة النورية . والغالب انحضرة المؤرخ لم ينظر الى هذه الاعتبارات واحب ان يرى الفشل بادياً على الدولة العربية لتتمتع البلاد بعدل الصليبيين كما تمتعت من قبل بعدل الروم والرومان .

أما دعواه أن ابن تيمية كان يحكم بالموت على كل من يخالفه في رأيه وكذلك تلميذه ابن قيمّ الجوزية فلا يقوم عليها دليل معقول خصوصاً بعد ان عرفنا حرص ابن تيمية على وقاية أهل الذمة كما ذكر ذلك في الرسالة القبرصية . وإذا افتى بتأديب الكسروانيين فلأنهم خرجوا على السلطان صاحب الوقت وآذوا ابناء وطنهم وعبثوا اذ ذاك بنظام المجتمع السوري ومثلهم بعملهم يقتل في كل شرع وسياسة مهما كانت نحلتهم واسف من بعدهم على ما حل بهم .

وقد آخذنا على قولنا ان المسلمين نحو ٣٠٠ مليون نسمة وادعى ان عددهم لايتجاوز المائتي مليون وانهم آخذون بالاضمحلال في كثير من الجهات الا في البلاد التي سقطت تحت الحكم الأجنبي ولم يُخرِج المسلمين في الصين عن السبعة الى الثمانية ملايين مع أنهم باجماع الثقات نحو الثلاثين مليوناً وقال ان مسلمي مراكش ثلاثة ملايين مع انهم زهاء سبعة ملايين . على اننا لم نورد هذا الاحصاء على انه حقيقة لاجدال فيها بل قلنا انهم نحو ثلثمائة مليون كما هو الشائع على ان قلة عددهم أيضاً لاتسمح لحضرة المؤلف ان يطعن في مقدساتهم فسواء كانوا مئة أو مئتين أو ثلثمائة مليون لاتجوّز الآداب التاريخية

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أن يعبث باصول يقدسونها في كتاب ينشر في ديارهم . واذا كان لايرضى الاب لامنس الا أن يضعف من أمر المسلمين ويدعي انقراضهم ويروقه استصفاء أرضهم فتمسكت على حواره مرجّعين محوّقلين .

وقد اتهمنا في نقلنا عن الافرنج عدد سكان الاندلس على عهد العرب وما رويناه عن ثروة الناصر وثبت على زعمه أن الصليبيين لم يقتلوا مئة ألف من أهل المعرة واللاجئين اليها . وحجنا بما نقل عن البلاذري في فتوح البلدان من الأرقام المحرفة بالطبع بشأن سكان قيسارية على عهد معاوية واتخذ من ذلك دليلاً على أن مؤرخي الاسلام يروون الأرقام الخرافية إلى غير ذلك مما غالط فيه بدون اقامة الحجة الداحضة، وعجيب والله من مؤرخ ينكر كل ما يرد من غير طريق أبناء مذهبه او ممن لم يضرب على وتره ، ولا يغتفر لهم زلة واحدة في جانب ألف صواب ويقبل ما يهرف به القائلون بقوله على علاته قضية مسلمة .

هذا ما دار عليه محور المناقشة . اما ما بدر منه خلالها من ألفاظ السخرية فاننا نصون قلمنا عن كتابة مثله لمناقشنا . فقد وسمنا بكولمبس الاندلس كأننا ادعينا اننا نحن اكتشفنا الاندلس في هذا العصر واتهمنا باننا آسفون على كوننا خلقنا في القرن العشرين ولم نخلق في أيام عز الاندلس ونحن لم نورد كلمة تشعر بهذا ولكننا اسفنا على مدنية العرب وندبناها وأهلها ونعينا على أعدائهم أعمالهم وهذا ما لا يروق في نظر دعاة التعصب الديني الذين يضربون كل علم على سندان النحل والمذاهب . ونسب قلة البضاعة في العلم لمن يستشهد بسيديليو وقال اننا طالعنا نيفاً وثلاثين مؤلفاً (بينهم صديقنا سيديليو) وعدة مؤلفين اسبانيين وأخذه الشك في اطلاعنا عليها وادراكنا لمضموناتها وقال اننا أخطأنا في تفسيرنا للنصوص الافرنسية .

وعلى ذلك نجيبه اننا لا نستنكف عن مطالعة أمثال سيديليو والاستشهاد بالجيد من كلامه وان أدى ذلك إلى رمينا بقلة البضاعة وقد طالعنا زهاء ستين مؤلفاً لا ثلاثين في تاريخ الاندلس ولم نطالع شيئاً بالاسبانية اللهم إلا بعض كتابات عربية وشرحها بالاسبانية او ترجمت من الاسبانية للافرنسية فادركنا مضمونها وعساه يبين لنا اوجه الغلط فيها ولا سيما في تفسيرنا للنصوص الافرنسية حتى نشكره على صنيعه علناً . والقول المجرد لا يقنع القاريء المنصف. لاجرم اننا لم ندّع قط ونحن نكتب ونؤلف منذ خمسة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وعشرين عاماً اننا نحسن لغة من اللغات ونحن لا نعرف منها إلا كلمات خلافاً لمن يعرفون بعض ألفاظ من لغة ويدعون الاحاطة بها . والغالب ان حضرة الاب لامنس على طول مقامه في هذه البلاد ودراسته الليل والنهار كتب العرب لم يصل حتى الآن إلى فهم اللغة العربية حق الفهم فضلاً عن أن يكتب فيها فمن أجل هذا لم يفهم ما نكتبه إلا بواسطة المترجمين ونختم هذه العجالة بتقديم الشكر له على حسن ظنه بنا وثنائه على علمنا في آخر مقاله ضارعين إليه سبحانه أن يعلمنا علماً نافعاً نفتح به صفحتنا للحق ولو كان علينا، ورحم الله من اهدى إليّ عيوبي .

محمد كرد علي